جذور تحليل الخطاب في تراثنا النقدي والأدبي

د . عمار حلاسة
د . أحمد قيطون
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

ملخص:

فعلى الرغم من أن فلسفة تحليل الخطاب وأصوله المنهجية ، تعد من إفرازات النقد المعاصر وتجليات الحداثة في مجال النقد والأدب . وعلى الرغم من أن تراثنا النقدي والأدبي لم يعرف هذه الفلسفة . إلا أنه ومع ذلك من الناحية العملية قد عرف كتابات تصب في صميم منهجيات تحليل الخطاب الحديث .

فإلى أي مدى استطاعت هذه الكتابات أن تتقاطع مع مقاربات تحليل الخطاب الحديث ؟

Résumé:

Malgrès que la philosophie des analyses des discours et ses origins, soit des arguments actuels avec des couvertures moderns dans le domaine de la léterrature. Et malgrès que notre léterrature ne connait pas cette philosophie comme mêmedu côté pratique a connait des écrits sur les analyses des discours actuels.

Où mène ces écrits qui se croisent avec des rapproches des analyses des discours actuels.

Abstract:

Although the discourse analysis philosophy and its methodological origins counted of the excretions of the contemporary criticism and the manifestations of modernity in the area of criticism and literature, and although our critical and literary heritage didn't know this philosophy, but nevertheless, from the practical side, it knew writings flow in the core of modern discourse analysis methodologies. So, to which extent, these writing were able to intersect with modern discourse analysis approaches?

على الرغم من أن تحليل الخطاب النقدي و الأدبي في التراث الأدبي والنقدي العربي قد بدأ مبكرا . حيث عرف تحليل الخطاب الأدبي مع بداية الاهتمام بالنص الأدبي نفسه . وعلى الرغم من أن هذا التحليل قد يبدو بسيطا ، أو ساذجا ، مما قد يجعل الكثير من النقاد المحدثين يعترضون على إدراجه ضمن تحليل الخطاب . ومع ذلك ونحن نحاول أن نقبض على الخيوط الأولى لتحليل الخطاب النقدي و الأدبي العربي أن نشير ولو من بعيد إلى هذه البدايات هي ما يمكن أن نعتبره الحجر الأساس للبدايات الأولى لتحليل الخطاب الأدبي والنقدي العربي .

ولعل من أبرز النماذج الدالة على هذا الخطابات من التحليل ، قد نجد بعض ملامحها في تلك المحاولات النقدية الأولى التي اتسمت بالانطباعية والشفاهية ابتداء من محكمة أم جندب ورغم سذاجتها وبغض النظر عن صوابها أو خطئها إلا أنها تمثل رؤية قد انطلقت من صميم تحليل الخطاب الذي يجعل القارئ حجر الزاوية في كشف دلالات النص . وقد استطاعت هذه القارئة انطلاقا من خلفيتها القرائية أن تلج أغوار النصين ، وتمنح قصب السبق لعلقمة

الفحل على حساب زوجها امرئ القيس .ولعل هذه الحادثة رغم بساطتها ، وسذاجتها ، إلا أنها تمثل جانبا من سلطة القارئ على النص في القبض على المعني .

وفي نفس الاتجاه يسير طرفة بين العبد حين ينقد المسيب من خلال خطابه الذي أوحى له ملفوظة اللغوي فداحة الخطأ الذي وقع فيه الشاعر ، و أرسل مقولته الشهيرة استنوق الجمل . وهي كما أشرنا إرهاصات نقدية في تحليل الخطاب حيث يتعامل القارئ مباشرة مع النص ، ويصدر أحكامه من خلال السلم الترتيبي الذي تبدى من خلاله هذا الخطاب .

ولعل هذه الأحكام الفردية الساذجة في تحليل الخطاب كانت مهادا لما بعدها ، ليتحول تحليل الخطاب إلى مجالس ، يشترك فيها أكثر من قارئ . ويتحاور أكثر من متدخل . ليفسح المجال لتحليل الخطاب كي يتنوع ، ويتخصص ، ويشتغل به المهتمون من اللغويين ، والنحاة ، والأدباء ، والنقاد . وقد كان الخليفة عبد الملك بن مروان رائدا في إرساء قواعد هذا التوجه الجديد في تحليل الخطاب . ولعلي سأكتفي بهذا النموذج الذي سيضعنا أمام أحد صور التوجه الجديد في تحليل الخطاب . فقد نقل المبرد في الكامل هذه الرواية التي يقول فيها « اجتمع جماعة من الشعراء عند عبد المالك بن مروان فتذاكروا بيت نصيب وهو قوله :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدي

فما في القوم إلا من عابه ، وأزرى على نصيب فيه . فقال عبد الملك فما كنتم تقولون أنتم ؟ فقال واحد منهم : كنت أقول يا أمير المؤمنين :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فيا ليت شعري من يهيم بها بعدي

فقال له عبد الملك : أنت أسوأ رأيا من نصيب

فقالوا فماذا كنت تقول ياأمير المؤمنين ؟ قال كنت أقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

فقالوا : أنت والله أشعر الثلاثة يا أمير المؤمنين [1]

وعلى الرغم من بساطة البيت وتسطحه بحيث غلق مجال تعدد القراءة ،مما جعل الحاضرون يجمعون على أحادية الدلالة ، فكان الإجماع منهم على تخطئته ، وإزرائه ، ومع ذلك فقد فتح بابا أساسا في تحليل الخطاب ، وهو باب تناسل النصوص . حيث استطاع هذا النص أن يكون النطفة التي يتخلق على إثرها تلك النصوص التي كانت مثار جدل مجلس عبد الملك بن مروان .

ولم تكن مجالس عبد الملك وحدها من تصدر إفساح المجال لمثل هذا النوع من تحليل الخطاب ، ولكن نستطيع أن نقول أن هذه المجالس أصبحت ظاهرة تميز العصر الأموي يتصدرها الخلفاء ، والأمراء ، والعلماء ، والأعيان . ولنا في مجالس سكينة بنت الحسن النموذج الأمثل على ذلك . فقد نقل صاحب الأغاني أنه قد « اجتمع في ضيافة سكينة بنت الحسين عليه السلام جرير ، والفرزدق ، وكثير ، وجميل ، ونصيب . فمكثوا أياما . ثم أذنت لهم فدخلوا عليها . فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم . ثم أخرجت وصيفة لها وضيئة وقد روت الأشعار ، والأحاديث . فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال ها أنذا . فقالت :أنت القائل :

هما دلتان من ثمانين قامة كما انحط باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلايا بالأرض قالتا أحي يرجى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الأعراس لا يشعروا بنا وأقبلت في أعجاز ليل أبادره

قال : نعم . قالت : فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترتها وسترت نفسك ؟ خذ هذه الألف والحق بأهلك . ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم جرير ؟ فقال لها : ها أنذا . فقالت : أنت القائل

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغر كأنه برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذي حدثتنا لوصلت ذات فكان غير رمام
إني أواصل من أردت وصاله بحبال لا صلف ولا لوام

قال نعم . قالت أفلا أخذت بيدها ورحبت بها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيف وفيك ضعف .خذ هذه الألف والحق بأهلك .ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم كثير ؟ فقال ها أنا ذا . فقالت أأنت القائل :

وأعجبني يا عز منك خلائق كرام إذا عد الخلائق أربع
دنوك حتى يطمع الطالب الصبا ودفعك أسباب الهوى حين يطمع
وقطعك أسباب الكريم ووصلك اللئيم وخلات المكارم ترفع
فوالله ما يدري كريم مماطل أينساك إذ باعدت أم يتضرع

قال نعم . قالت : ملحت ، وشكلت . خذ هذه الثلاثة الآلاف والحق بأهلك . ثم دخلت إلى مولاتها وخرجت فقالت : أيكم نصيب ؟ قال : ها أنا ذا قالت : أأنت القائل ؟

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسي النشء الصغار
بنفسي كل مهضوم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتصار

قال : نعم . قالت ربيتنا صغارا ، ومدحتنا كبارا . خذ هذه الأربعة الآلاف والحق بأهلك . ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل مولاتي تقرئك السلام وتقول لك : والله ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادي القرى إني إذا لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء . خذ هذه الأربعة الآلاف والحق بأهلك [2]

وقد أثرت أن أنقل هذا النص بأكمله رغم طوله ، لنرى كيف يضع تحليل الخطاب القارئ في الصدارة والمقدمة . فلا سلطة على النص غير السلطة التي تنشأ من تلك العلاقة الحميمية بين النص وقارئه . بعيدا على سلطة المؤسسة المهيمنة ، حيث تمركز اللوغوس أين يصبح القارئ أو الناقد أداة سلبية يوجهها اللوغوس المتمركز أنى شاء ، وكيف ما شاء . لتتحول القراءة إلى مجرد البحث عن سمات عمود الشعر وبذلك تكون القراءة تحقيقا للخارج ، وتكريسا لسلطته على النص .

في حين نجد القراءة في ظل تحليل الخطاب ، هي إفساح المجال للقارئ ، ليدور في فلك الداخل ، ويقرأ النص انطلاقا من توجهه القرائي ، لا من توجهه اللوغوسي . ومن هذا المنطلق وجدنا سكينة في هذا النص تعيد ترتيب تفاضل الشعراء انطلاقا من تحليلها الخاص للخطاب بعيدا عن هيمنة اللوغوس . فقدمت نصيبا على جرير ، على الرغم من أن السلطة المهيمنة التي تنطلق من عمود الشعر ، تقدم جريرا من غيره لأنه كما تصفه ينهل من بحر ، ومع

ذلك فإننا نجد جارية سكينة تقدم نصيبا لأنه كما قالت ربيتمونا صغارا ، ومدحتمونا كبارا . وهو حكم ينم على طبيعة العلاقة الوشائجية بين النص ومتلقيه .

ليرتقي تحليل الخطاب بعد ذلك إلى العلمية التي تبناها علماء اللغة . حيث كانوا يحللون الخطاب من خلال ما تتيحه حركات النحو من أوجه ، تمكن هذا القارئ من استنطاق النص واستنباط مختلف أوجه الدلالة . أو من خلال قوانين اللغة . ولذلك كانوا يخطئون الشعراء ويعنفونهم إذا لم يجدوا لخطابهم تخريجا تسمح به الصرامة العلمية التي يتبناها الاتجاه اللغوي والنحوي القائم على مثل هذا النوع من القراءة . على نحو ما نجد عند الحضرمي . حيث روى ابن سلام أن عبد الله بن إسحاق الحضرمي وكان من علماء النحو سمع الفرزدق ينشد في قصيدة مدح بها يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام تضربهم بحاصب كنديف القطن منثور
على عمائمنا يلقى وأرحلنا على زواحف تزجى مخها رير

فقال له : أسأت . إنما هي رير بالرفع . وكذلك قياس النحو في هذا الموضع .فلما ألحوا على الفرزدق قال : على زواحف تزجيها محاسير . فلما أكثروا الرد على الفرزدق هجا عبد الله بن إسحاق الحضرمي بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا [3]

وعلى الرغم من أن هذا النص يضعنا أمام انتقال السلطة من المركزية المهيمنة ممثلة في عمود الشعر ، إلى سلطة اللغة من خلال هيمنة أنظمتها الداخلية ممثلة في النحو كما يفرضه علماء النحو من أمثال الحضرمي ، إلا أن هذا الصراع العنيف بين الحضرمي والفرزدق ، قد أدى إلى منحى خطير ، وضع لبناته الأولى الفرزدق ، حين دعا إلى اتخاذ النحو وسيلة لخلق تعدد القراءة ، وتناسل النصوص . وبذلك يتنازل النحو عن صرامته العلمية . ويتحول إلى أداة طيعة بيد القارئ . يصل من خلاله لمختلف التخريجات القرائية . فتتوالد بذلك النصوص وتختلف من قارئ لآخر . وقد يصل درجة من النضج لتصبح كل قراءة هي إساءة قراءة . حين يتقوض المركز الحريص على صرامة القاعدة ، ويصبح وسيلة لتناسل النصوص وتكاثرها . ومن هذا المنطلق كانت دعوة الفرزدق الجريئة حين صرخ في وجه الحضرمي قائلا – علينا أن نقول وعليكم أن تؤولوا – .

غير أن تحليل الخطاب بمعنى أعمق ، لم يطغى على ساحة النقد والأدب إلا مع أبي تمام الذي خرج على المألوف ، فأدهش ، وأحدث رجة ، وضجة أسالت حبرا كثيرا في مجال تحليل الخطاب . حيث رأينا لأول مرة في التاريخ الأدبي يتمرد الخطاب على المركز المهيمن ، ويشق له طريقا ، انطلاقا من ذاتيته ، بعيدا عن سلطة المركز . وبذلك يرمي بعمود الشعر عرض الحائط ، ويخرج عن المألوف والسائد ، ويرتمي في أحضان النص المائع ، بدل النص الثابت . ويستدعي الاختلاف ، بدل الاتفاق . والتباين بدل التجاور . ويضع القراء أمام خطاب يسهر الخلق جراه ويختصمون .

فقد كان « شعره لا يشبه أشعار الأوائل ، ولا على طريقتهم ، لما فيه من الاستعارات البعيدة ، والمعاني المولدة [4] » . هكذا شاءت سلطة المركز ، أن تصف شعر أبي تمام ، لتبرر لنفسها سبب مآخذة أبي تمام ، وعقابه بتقديم تلميذه البحتري عليه . لأن المركز لم يهضم خطابا لا يستمد شرعيته من سلطة المركز . غير أن الخطاب التمامي بهذا التمرد استطاع أن يشق طريقا جديدا في تحليل الخطاب ،

لم تعهده الساحة النقدية قبله . حيث يتخلى النقد عن الأحادية التي كانت تكبله . ولأول مرة يسمح النقاد لأنفسهم ، ليتعاملوا مع النص انطلاقا من كونه خطابا ،يحدد مفاتيح قراءته ، علاقته الخاصة بالقارئ . ولذلك كان النقاد جراه يسهرون ويختصمون .

لقد كانت « الظاهرة التي يمثلها أبو تمام في الشعر قد شغلت النقاد والمتذوقون في القرن الثالث ، ثم ورثها نقاد القرن الرابع ، وأمعنوا فيها . وقد ...ألف فيه ابن المعتز رسالة مستقلة . ويتضح مما جاء فيها انقسام الناس إزاءه في دور مبكر ، في فريقين . حتى جعل ابن المعتز أسباب التحامل عليه لجاجا في الخصومة التي اضطلع بها من ينفرون من طريقته ، لإفراط الذين يقدمونه ويتعصبون له [5] » . لقد كان الخطاب التمامي ، يتسم بالجرأة التي تجعل القارئ ، وهو يراود النص ويروضه ، وكأنه يسير على الأسلاك الشائكة . مما جعل هذا النص محل لجاج وخصام ، بين مستهجن ومستحسن .

غير أن الذي يهمنا في هذا المضمار ، ما فتحه هذا الخطاب من آفاق قرائية ، لم تكن معروفة ، أو لم تكن المؤسسة القائمة على القراءة ، تسمح له–ا بالظهور . غير أن الخطاب التمامي قد فرض نفسه . وفرض على القائمين تعدد القراءة ، وحتى تناقضها في كثير من الأحيان ، كما سوف نرى في قراءة الخطاب التمامي . بل يمكن أن نقول أن الخطاب التمامي ، قد أفسح المجال لنوع من النقد ، ما كان له أن يرى النور ، لولا الخطاب التمامي . هذا النقد الذي يتمرد على القاعدة ، والضبط الذي تضعه المؤسسة المركزية ، ليفسح هذا النقد لنفسه الحرية التامة بأن ينطلق من ذاته ، ولا شيء غير ذلك . وإن كانت هذه الذاتية المفرطة ، تجنح في كثير من الأحيان للتطرف على نحو ما نجد عند أحمد بن عبيد الله بن عمار القرطبلي في رسالته التي خصها لتتبع عثرات أبي تمام اللفظية والمعنوية .

« وموقف ابن عمار هذا مرده إلى الاحتكام للهوى ... ومثل هذا الناقد لا يصاب في رأيه من قبل المقدرة على الحكم المصيب ، وإنما يصاب من قبل العناد ، والذهاب مع حب المخالفة . وإلا فإن الآراء النقدية التي وصلتنا لابن عمار في غير أبي تمام ، تدل على قوة في النفس ، ونفاذ في البصر ، ووضع للحسنة إلى جانب السيئة [6] » . ولعل هذه الفسحة التي أعطاها ابن عمار لنفسه في تحليل الخطاب ، جعلت علماء النقد ينعون عليه ، وعلى أمثاله مثل هذا المسلك ، داعين في الآن ذاته ، للرجوع لجادة الطريق ، حيث المنهج العلمي ، في تبرير الجودة ، أو الاستهجان في الحكم على الخطاب . فعلى الرغم من أن الصولي قد وقف إلى جوار أبي تمام ، ومع ذلك فهو ينعى على المناوئين له استهجانهم لشعره ، دون أن يرتكزوا على قواعد ، يبررون من خلالها مواقفهم النقدية .

« فقد كان موقف أبي بكر محمد بن يحي الصولي ردا على أمثال ابن عمار ، ممن حاولوا أن يغمطوا أبا تمام حسناته .فكتب أخبار أبي تمام وصدره برسالة إلى مزاحم بن فاتك ، يبين الأسباب التي دعته لذلك . وهو يشكو في رسالته تسور المثقفين من أبناء عصره ، على ما لا يحسنون بأدنى طلب ، وأقل حظ من ثقافة [7] » . وهنا يتبدى لنا اتجاه جديد في تحليل الخطاب أراد الصولي أن يرسي معالمه ، ويتمثل في فتح الطريق للقراءات المعتمدة وحدها . حتى لا تتسرب القراءات الطفيلية والهشة. وهو شبيه جدا بما تطلق عليه نظرية القراءة بالجماعة القرائية .

ومن هذا المنطلق ارتأى الصولي أن يكون الجدل حول شعر أبي تمام ، جدلا بين الجماعات القرائية ، وإن اختلفوا في الرؤية ، والمنهج . ومع ذلك فلا بد لكل فريق ، أن تكون له مرجعية قرائية ، يستمد منها الرؤى النقدية التي ينطلق منها . ولذلك فقد عاب على ابن عمار المنطلق من الهوى ، ولم يعب على غيره من المناوئين لشعر أبي تمام ، لأنهم ينطلقون من جماعة قرائية ، تبرر توجههم . ومن هذا المنطلق فقد رد على هذه الجماعة القرائية المناوئة بما يفند مزاعمها ، اعتمادا على أسس قرائية أخرى ، فقال : «.وليس أحد من الشعراء ... يعمل المعاني ، ويخترعها ، ويتكئ على نفسه فيها ، أكثر من أبي تمام [8] » .

وهو رد صريح على توجه الجماعة القرائية المناوئة والمنطلقة من مقولة الآمدي « وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ، ولا على طريقتهم [9]» . وهكذا يتحول النص التمامي ، نواة لتوالد الخطاب النقدي ، ليتبدى أمامنا النقد ، ونقد النقد ، مسفرا على توجهين نقديين في تحليل الخطاب . أحدهما : يتبنى الداخل ، والآخر يتبني الخارج . حيث يتبني الأمدي وجماعته القرائية الخارج . حيث تكون طريقة القدماء ، وسبلهم في الكتابة هي مقياس الجودة عندهم. ومن هذا المنطلق عد أبي تمام معيبا عندهم ،لأنه يخالف سبيل القدامى وطريقتهم في الكتابة . في حين قد تبنت الجماعة القرائية التي ينتمي إليها الصولي الداخل ولذلك اعتبرت انزياحات أبي تمام تجديدا ،وعد عندها لذلك مجيدا . لا لشيء إلا لأنها تنطلق من الداخل ، حيث كان النص هو المحك الذي يصدر منه وعليه الحكم النقدي بالسلب أو الإيجاب . ولذلك وجدنا الصولي يبرر استحسانه لشعر أبى تمام ، لأن هذا الشاعر لا يتكئ على أحد في حبك معانيه . وهو السبب نفسه الذي أزرى به عند أصحاب الخارج ، الذين يقيسون الجودة بحسن الاتباع . بينما كان مقياس اتجاه الداخل ، النص في حد ذاته .

ومن هذا المنطلق كان أبو تمام مجيدا لأنه « قد أغرم بالزينة و التعمق في التأنق ، فكل بيت في القصيدة أنما هو وحدة من وحدات هذا التنميق والزخرف . ليس زخرفا لفظيا فحسب ، بل هو لفظي و معنوي ، يودع ظاهرة براعة الألفاظ وباطنه خفيات المعاني وبذلك انتهى عنده مذهب البديع والصنعة [10] » . وعلى الرغم من أي أبا تمام قد انطلق في خطابه من الموروث الشعري ، والذاكرة اللغوية الجمعية ، وما تعارفت عليه من أساليب ، إلا أن تلك المباشرة ، والوضوح التي وسمت خطاب المركز ،لم تعجب أبو تمام فأراد أن ينشئ نصا خاصا ،يتطلب قارنا خاصا . وبذلك سيسلك تحليل الخطاب نهجا جديدا مع مستجدات أبي تمام . ولذلك بالغ أبو تمام في التركيز على الصورة وتكثيفها ، تجنبا للسطحية ، والمباشرة من جهة ، ومن جهة أخر ، حرصه على خلق قارئ جديد .

فكان « يحرص على ألا يخليى بيتا من تشبيه أو استعارة . فهو لا يقبل أن يرسل أفكاره بالأسلوب المباشر ، وإنما طريقته ومنهجه أن يكون هذا الأسلوب مليء بشتى الصور المجازية ، ويعتمد في أسلوبه هذا على التكثيف الخيالي . فصوره لا تستثير خيالا واحدا ، وإنما تستحضر خيالات ، تتكاثف تكاثف الركام ، لتؤلف صورة فيها شيء من التعقيد والغموض . ولكنه غموض ناتج عن قراء ة ، وعمق ، وجمال [11] » .

لقد تعود القارئ العربي على الصورة البسيطة ، الواضحة ، والمسطحة ، القائمة على الحسية ، حيث لا تتجاوز التشبيه المادي ، لتتلخص مهمة القراءة وتحليل الخطاب في البحث على وجه الشبه . ليأتي أبي تمام ويطرح نموذجا جديدا لصورة مكثفة ، تستمد ظلالها من عدة صور ، تتعانق ، وتتماوج ، لتتمخض على صورة جديدة ، تتطلب جملة من الخيالات ، قادرة على التفكيك ، وربط العلاقات . وهذا يتطلب قارنا متمرسا من نوع خاص . ومن هنا أمكننا أن نقول أن خروج أبي تمام هو إيذان بانتقال تحليل الخطاب إلى مستوى آخر ، يتخطى البحث على علاقة وجه الشبه في الصورة ، لينتقل إلى التأويل. وبذلك يطوي صفحة لمرحلة ساذجة في تحليل الخطاب ،كانت تقوم على التفسير إلى مرحلة أعمق أصبحت تتبنى التأويل .

فبعد أن كان المحلل يضع يده مباشرة على المعنى من خلال الحمولات المسبقة للألفاظ ، أصبح التأويل يمر بمراحل عدة لا تقل عن مرحلتين « أولاهما تتمثل في التوجه بالألفاظ إلى دلالتها المألوفة أو الظاهرة . وفي هذه المرحلة لا يحصل المستقبل على شيء يعتد به . فيدرك أن الكلام إنما يجري على الظاهر . والثانية تتمثل في البحث عن المعنى المقصود ما هو ؟ وهنا لا بد للمستقبل من أن يأخذ بشيء من التأويل ، أو يستنجد بما تتقاضاه مذاهب الشعراء في التعبير [12] » . لقد استطاع أبو تمام بنهجه هذا ، أن يحدث صدعا في منهج تحليل الخطاب . حيث حتم على القارئ أن يغير من آلياته ، حتى يستطيع أن يسبر أغوار الخطاب التمامي . وهذا ما أدركه بعض نقاد عصره من أمثال التبريزي و الصولي . فقد أدركت هذه الطائفة كثافة الصورة عند أبي تمام فواجهتها بما يناسبها من آليات تحليل

الخطاب القادرة على استنكاه كنهها . وقد كان التبريزي مدركا لحقيقة هذه النقلة وطبيعتها . فتعامل مع الخطاب التمامي من هذا المنطلق . ولذلك فلا عجب أن يصرح بأن « مذهب الطائي أن يستعمل اللفظة على معنى الاستعارة ويجعل المعنى كغيره مما لا يدركه النظر [13] » .

إلى جانب هؤلاء الذين أدركوا ضرورة تغيير آليات تحليل الخطاب ، لتغيير أساليب الخطاب ، وأصنافه ، هناك من تعصب للآليات القديمة ، وأبى إلا أن يمتطي صهوتها ، ويقارب بها الخطاب التمامي . مما أوقعه في الحرج ، والوهم ، وعدم القدرة على ولوج عتبات هذا الخطاب ،كما هو الحال بالنسبة لصاحب الموازنة الذي راح يتهم أبا تمام في منطقه ، وطريقته ، وما ذهب إليه . وقد نعى الجرجاني على هؤلاء وسائلهم ، وطرقهم ، وأفهمهم أن تغيير الخطاب ، يستدعي تغيير آليات تحليل الخطاب حين قال : « ومن عادة قوم من يتعاطى التفسير بغير علم ، أن توهموا أبدا في الألفاظ الموضوعة على المجاز و التمثيل ، أنها على ظواهرها فيفسدوا المعنى بذلك ، ويبطلوا الغرض ، ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضوع البلاغة وبمكان الشرق [14] »

ولعلنا بدأنا تلمس منحى من تحليل الخطاب بدأ يطفو على السطح ، يتسم بنوع من العمق . حيث نجد بعض ملامح نظرية القراءة بدأت تلوح على الأفق . حيث أصبحنا نري في بعض هذه الخطابات شيئا مما يسميه عبد العزيز حمودة الجماعة القرانية . وبذلك تصبح إستراتجية القراءة ، لا تتسم بالطابع الفردي ، « لكنها إستراتجية الجماعة المفسرة التي ينتمي إليها القارئ . قد ينتمي القارئ الواحد إلى أكثر من جماعة مفسرة واحدة في مراحل حياته المختلفة ، لكنه يقارب النص في لحظة محددة في ضوء إستراتجية الجماعة التي ينتمي إليها في تلك اللحظة . وقد يترتب على ذلك بالطبع أن تتغير قراءة القارئ الواحد لنفس النص مع تغيير انتمائه من جماعة مفسرة إلى جماعة أخرى . معنى ذلك أن التغيرات في تفسير النص ،تعرف الحدود والضوابط . إنها تغيرات محدودة ومحكومة ، لأن القارئ ليس طليق اليد تماما في استخدام أي إستراتجية قراءة تحلو له .فالقارئ ينتمي إلى جماعة تفسير معينة ، تقرأ له النصوص . بمعنى أنها توفر له أدوات القراءة ، والتحليل ، والتفسير [15] » .

وقد رأينا في النقد العربي القديم كيف أفرزت هذه الجماعات ، تيارين في القراءة متباينين : التيار المتعصب للرافد العربي ، والتيار المتفتح على مختلف الجماعات القرائية . وقد برز هذين التيارين النقديين من خلال القراءات التي قدمت حول شعر أبي تمام والمتنبي .

وإذا كنا قد المحنا إلى نظرية القراءة ودورها في تحليل الخطاب ، فإننا قد نجد لهذه النظرية جذورا أعمق تتجاوز العصر العباسي وتسبقه بكثير . حيث يمكننا أن نلمس بعض معالم مستويات الخطاب مع صحيفة بشر بن المعتمر ، حين يتحدث عن مستويات الخطاب ، ويصر على ضرورة أن لا يتجاوز الكاتب ، القارئ . ويدعو إلى مراعاة أفقه القرائية . ولهذا فقد توجه بشر إلى الكتاب واضعا أمام أعينهم سبل تدليل الخطاب للقارئ . ومن هذا المنطلق فقد عدها عبد القادر حسين وثيقة نقدية خطيرة إذ « الذي لفت بحق أنظار المشتغلين بالبلاغة أكثر من غيره ، بل دون غيره على الإطلاق ، تلك الصحيفة الخالدة لبشر ين المعتمر زعيم المتكلمين لأهميتها الشديدة في تاريخ البلاغة . وقد نصح فيها الكتاب بأمور تعد في صميم علم البلاغة [16] » .

وتبرز أهمية الصحيفة بالنسبة لتحليل الخطاب ، في تركيز بشر على كيفية بناء الخطاب . إذ كلما راعى المتكلم أساليب الخطاب ، وطرقه المتداولة ، كلما سهل على القارئ الولوج إلى عمق الخطاب ، وأمكنه أن يسبر أغواره . إذ يقول « وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ... ومن أراغ معنى كريما

فليلتمس له لفظا كريما . فإن حق اللفظ الشريف ، المعنى الشريف . ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما [17] » .

وقد أدرك بشر وجهي عملة العلامة اللغوية من دال ومدلول . ولم يقف عند الوجه الأول الخاص بالدال حيث اللغة وتشكلها وتجليها واحترامها للنظام الذي يجعلها في متناول القارئ ، ولكن ذهب إلى الطرف الآخر والمتمثل في المدلول .

حيث يؤكد على أن إهماله يؤدي إلى الغموض والتعقيد ، ويكون بذلك الخطاب معيقا على التواصل . ومن هذا المنطلق راح ينصح صاحب الخطاب محذرا إياه بقوله – وإياك والتوعر – ولعل من ابرز مظاهر التعقيد والتوعر وأخطرها ، اختيار أصعب المسالك ، وأعقد الأفكار ، والابتعاد عن مراعاة مقتضى الحال في مخاطبة الآخر . يقول بشر : « فكن في ثلاثة منازل . فإن أولى الثلاثة ، أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا . ويكون معناه ظاهرا مكشوفا ، وقريبا معروفا .

أما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت . وأما عند العامة إن كنت للعامة أردت ... وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من مقال [18] » .

وهكذا يتبين لنا من خلال وثيقة بشر أنه لم ينظر إلى الخطاب على أنه مجرد تجلي اللغة وتراصفها وفقا للنظام النحوي والصرفي والدلالي ، وإنما تتعدى ذلك إلى علاقتها بالمخاطب وكيف يمكن أن تكون وسيلة اتصال ، أو وسيلة انغلاق . فطبيعة العلاقة بالمتلقي هي التي تعطي للخطاب صدقيته ووجوده ، أو عدمه . فمن « خلال قراءتنا لهذه الوثيقة نستنتج ، أن بشرا بن المعتمر قد ركز على اللغة وتناسبها مع المعاني من جهة . أي نظر إلى اللغة في علاقتها بالدلالة . ثم نظر إليها من زاوية علاقتها بمرجعها . أي مطابقتها لحال المخاطب . ثم إلى علاقتها بمستعملها . وقد ركز في المنزلة الثالثة على العلاقة الشهوية التي يجب أن تتأسس بين المبدع واللغة [19] » .

وقد استفاد الطائي من هذه العلاقة الوشائجية التي أقامها بشر بين النص ومنتجه ، وبين النص وقارئه ، ليكون الخطاب عامل وصل وبناء ، لا عامل فصل وهدم . فحين وجه نصائحه لتلميذه البحتري في وصيته الشهيرة ، فقد نبهه إلى أهمية هذه العلاقة وخطورتها في ثقل الخطاب وأهميته في تجاوز الاستخدام للغوي إلى وظيفته التواصلية القائمة على الجمع بين مؤسسة القراءة ، ومؤسسة الإنتاج ،حين يوصي تلميذه بقوله : « وإياك أن تشين شعرك بالعبارات الزرية ، والألفاظ الحوشية ، وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام [20] » .

وإذا استطاع الخطاب أن يقيم هذه العلاقة الوشائجية بين المؤسستين ، فلا شك أن هذا سوف يؤدي إلى تناسل المعاني . ولا يمكن أن تتناسل المعاني ، مالم تنطلق من شهوة الكتابة . وهو المبدأ الذي أقره أبو تمام وهو ينصح تلميذه من خلال الوصية السالفة الذكر حين يقول :« ولا تنظم إلا بشهوة ، فإن الشهوة نعم المعين على النظم [21] » . وقد أعجب رولان بارت أيما إعجاب بهذا الاستحضار للمشهد الجنسي ، فوظف هذا المصطلح تحت مسمى آخر وهو ما يسميه نص اللذة الذي يقابله نص المتعة . « ونص الشهوة ينتج حتما لذة القراءة ، لأنها تجاوز لوظيفة النص ودعائيته وغائيته . لأنه نص يقطع حتما الصلة مع النفعية الفجة التي ترى في اللغة مجرد أداة وليست غاية . [22] » .

وإذا كانت كتابة الشهوة تجعل اللغة تتجاوز تشكلها الخطي . وتتجه نحو ذاتها لتتناسل ، وتنتج ما لا حد له من النصوص ، لتفسح المجال لما يسميه أبو حيان التوحيدي الكلام على الكلام حيث « نجد أن أبا حيان التوحيدي قد تكلم أيضا عن الممارسة النصية ، وحدد مستويات الخطاب بدقة . لا يهمنا المستوى الأول في الخطاب والذي يتعلق بالبيان . أما المستوى الثاني والذي يسميه الكلام على الكلام أي ما يسميه النقد المعاصر الميتا لغة meta - langue

أو اللغة الشارحة . ويعترف أبو حيان التوحيدي منذ البداية بمعاناة هذه الممارسة . لأن الكلام على الكـــلام صـــعب . وهذا مقارنة مع الكلام الأدبي الإبداعي . فأما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه ، ويلتبس بعضه ببعضه . وهذا ما يجعل هذه الممارسة في غاية الصعوبة وانطلاقا من هذه الملاحظة النظرية فإن أبا حيان التوحيدي يميز بين بلاغتـــين :بلاغة الكلام ، وبلاغة الكلام على الكلام – التأويل – [23] » .

ليصبح الكلام على الكلام هو جوهر تناسل النصوص . وبذلك تفقد النصوص حدودها . تلك الحدود المانعة من الأخذ والعطاء مع غيرها من النصوص . بهذه الشذرات أستطيع أن أأكد زعمي بأن تحليل الخطاب يضرب بجـــذوره ، ويمتد ليشمل بعض المقاربات النقدية من نقدنا العربي القديم .

الهوامش

[1] – المبرد الكامل – ج1 ص .183

[2] – المرجع السابق –ج1 – ص.161 – 163

[3] – علي بن محمد – الشواهد النقدية من العصر الجاهلي إلى بداية عصر التأليف – ديوان المطبوعات الجامعية – 1982 – الجزائر – ص 62

[4] – الآمدي – الموازنة بين الطائيين – ج1 – تحقيق السيد صقر – دار المعارف – القاهرة – مصر – ص . 4

[5] – إحسان عباس – تاريخ النقد الأدبي عند العرب – دار الثقافة – بيروت – لبنان ص . 147

[6] – المرجع السابق – ص . 149

[7] – المرجع نفسه – ص .151

[8] – الصولي أبو بكر – أخبار أبي تمام – تحقيق محمد عبده عزام – خليل عساكر – نظير الإسلام الهندي – دار المعارف – 1937 – ص.53

[9] – الآمدي – الموازنة بين الطائيين – ج1 – ص .4

[10] – عبد الفتاح لاشين – الخصومات الأدبية والنقدية في صنعة أبي تمام – دار المعارف – 1982 – ص.28

[11] – عبد الله بن حمد محارب – أبو تمام بين ناقديه قديما وحديثا – مكتبة الخانجي – القاهرة – مصر – ص 456

[12] – عبد القادر الرباعي – الصورة الفنية في شعر أبي تمام – ص. 15

[13] – الغطيب التبريزي –شرح ديوان أبي تمام – – ج2 – تحقيق عبده عـــزام – دار المعـــارف – القـــاهرة – مصـــر – ص497

[14] – الجرجاني دلائل الإعجاز – تحقيق محمد عبده – مكتبة العلم 1990 – جدة – المملكة السعودية – ص.245

[15] – عبد العزيز حمودة – المرايا المحدبة – عالم المعرفة – عدد232 – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – ص.328

[16] – عبد القادر حسين – أثر النحاة في البحث البلاغي – دار نهضة مصر – 1975 –القاهرة – مصر – ص.32

[17] – أبو عثمان عمرو بن بحر – البيان والتبيين – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – ص.95

[18] – المصدر نفسه –ص.95

[19] – حسين خمري – نظرية النص – منشورات افختلاف – ط1 – 2007 – بيروت – لبنان – ص.327

[20] – أبو تمام – نقلا عن – شمس الدين النواجي – مقدمة في صناعة النظم والنثر – تحقيق محمد بن عبـــد الكـــريم – دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان – ص 41

[21] – المصدر نفسه – ص. 42

[22] – حسين خمري – نظرية النص – ص. 328

[23] – حسين خمري – نظرية النص – ص. 328، 329

قائمة المصادر والمراجع

1 – الآمدي أبو القاسم الحسن بن بشر – الموازنة بين الطائيين – ج1 – تحقيق السيد صقر – دار المعارف – القاهرة – مصر
2 – إحسان عباس – تاريخ النقد الأدبي عند العرب – دار الثقافة – بيروت – لبنان
3 – التبريزي الخطيب – شرح ديوان أبي تمام – ج1 – تحقيق عبده عزام – دار المعارف – القاهرة – مصر
4 – الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر – البيان والتبيين – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان
5 – الجرجاني عبد القاهر – دلائل الإعجاز – تحقيق محمد عبده – مكتبة العلم – 1990 – جدة – المملكة العربية السعودية
6 – حسين خمري – نظرية النص – منشورات اختلاف – ط1 – 2007 – بيروت – لبنان
7 – شمس الدين النواجي – مقدمة في صناعة النظم والنثر – تحقيق محمد بن عبد الكريم – دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان
8 – الصولي أبو بكر – أخبار أبي تمام – تحقيق محمد عبده عزام ، خليل عساكر ، نظير الإسلام الهندي – دار المعارف 1937 – القاهرة – مصر
9 – المبرد أبى العباس محمد بن يزيد – مؤسسة المعارف – بيروت – لبنان
10 – علي بن محمد – الشواهد النقدية من العصر الجاهلي إلى بداية عصر التأليف – ديوان المطبوعات الجامعية – 1982 – الجزائر
11 – عبد الله بن حمد محارب – أبو تمام بين ناقديه قديما وحديثا – دار الخانجي – القاهرة – مصر
12 – عبد العزيز حمودة – المرايا المحدبة – عالم المعرفة – العدد 232 – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت
13 – عبد الفتاح لاشين – الخصومات الأدبية والنقدية في صنعة أبي تمام – دار المعارف – 1982 – القاهرة – مصر
14 – عبد القادر حسين – أثر النحاة في البحث البلاغي – دار نهضة مصر – 1975 – القاهرة – مصر